الفصل الأول

ما هى الغرائز؟

أريد الآن أن نناقش بعض وجوه النشاط العقلى الهامة. فإذا كنا نريد أن نتعلم السيطرة والتحكم فى عقولنا فيجب أولا أن نعرف هذه القوى التى تسرى فى جوانب الشخصية كى نعرف كيفية التعامل معها.

وعندما نفكر فى الغرائز، وهى مصدر تلك القوى الرهيبة الصعبة القياد سواء عالجناها بالإرادة أو بالعقل، يخيل إلينا أنها أشبه بنهر جارف التيار من الطاقة النفسية يتشعب إلى قنوات متعددة تيارها جميعا شديد العنف.

والغرائز المختلفة هى تلك القنوات المختلفة التى تتدفق من خلالها تلك الطاقات الأولية للعقل. ولكننا سنرى فيما بعد أن هذه القنوات قد تغوص أحيانا بمجاريها تحت الأرض بعيدا عن الأنظار، فتكون بمثابة لغم يهدد أساس الشخصية إلى درجة خطيرة، ويعرض بنيانها مهما ارتفع للانهيار. ومن الجائز أيضا أن تسد مجارى تلك القنوات، فيقف تيار بعضها ويركد ويأسن، مثل ماء المستنقعات الكريهة. أو يتحول تيارها بسبب السدود فى اتجاهات مخالفة للطبيعة، فيحدث الشذوذ الذى يتأذى منه المجتمع إن لم يتضرر منه الشخص نفسه. فمن الضرورى إذن أن نلم إلماما معقولا بحقيقة الغرائز.

إن كلمة غريزة من الكلمات التى يسوء استعمالها فى كثير من الأحيان، فتوضع فى غير موضعها. نسمع مثلا شخصا يتكلم عن «الغريزة السياسية». وإننا لنحمد الله أنه لا وجود لغريزة بهذا الاسم، وإلا لما استطعنا أن نمنع الناس جميعا من أن يكونوا ساسة.

ونسمع أحيانا من يتكلمون عن الدين باعتباره غريزة، فيقولون الغريزة الدينية. وبعض جذور الدين تمتد إلى أعماق الغريزة. ولكن الدين ليس غريزة بمعنى الكلمة، ووجود الديانة لدى جميع السلالات البشرية ليس دليلا على أن الدين من معدن الغرائز. وكل ما هناك أنه ملكة عامة بين الناس، فهو ليس كالجوع الذى هو غريزة لا شك فيها. ومن كان فى شك من هذا، فأنا أدله على تجربة لا يحتاج بعدها إلى مزيد من الإقناع. فليمتنع عن تناول الطعام يومين كاملين إن استطاع، ثم يختبر مبلغ جوعه، وسيجده قد ازداد ساعة بعد ساعة. أما إذا ترك الصلاة فترة من الزمن، فسيجد أن ميله لأداء الصلاة يقل يوما بعد يوم. أى أن الأمر فى الصلاة على عكس الأمر فى الجوع، مما يدل على أن الصلاة عادة تكتسب وتفقد. أما الجوع فليس عادة تحتاج إلى اكتساب وتتعرض للفقدان. إنه غريزة.

إن العادة أو الملكة تزداد بالمثابرة والممارسة وتتناقص بالإهمال. فالموسيقى ملكة، والتعبد ملكة، والفنون كلها ملكات. أما الغرائز فلا اختيار للإنسان فيها، تجبره على إشباعها. إن أهملها زاد إلحاحها عليه، ولا يعلمه إياها أحد لأنها تفرض نفسها بغير تعليم.

ففى استطاعتنا إذن أن نعرف الغريزة بأنها دافع فطرى يولد به الإنسان. وهذا الدافع مشترك بين جميع العقول. لا يكتسبه الإنسان بالتعلم ولا يتخلص منه بالترك.

وهناك تعريف آخر للغرائز، بأنها دوافع أولية. تعتبر المصدر لجميع الميول الفطرية. والميول الفطرية هى التى لا تتولد عن التجربة، ولا تحتاج إلى تعلم، بل تنبع من اللاشعور. وهى من أهم القوى المحركة أو الدافعة للشخصية الإنسانية.

والعلامة « مكدوجل » فى كتابه « مجمل علم النفس ». وأيضا فى كتابه « علم النفس الاجتماعى » يقدم قائمة بترتيب الغرائز على النحو التالى:

١ – غريزة الأبوة أو الأمومة.

٢ – غريزة المقاتلة.

٣ – غريزة الاستطلاع.

٤ – غريزة الجوع.

٥ – غريزة التقزز أو النفوز.

٦ – غريزة الهرب.

٧ – غريزة القطيع.

٨ – غريزة تأكيد الذات

٩ – غريزة الخضوع.

١٠ – غريزة التناسل.

١١ – غريزة التملك أو الاقتناء.

١٢ – غريزة البناء.

وقد رجعت إلى كتب أخرى من أمهات المراجع فى علم النفس، فوجدت هذه القائمة تتغير بين كاتب وآخر. ومن المؤلفين من تصل القائمة عنده إلى نحو أربعين غريزة. وأنا أرى مراعاة للبساطة أو ابتعادا عن التعقيد، ومن غير اعتداء على الدقة

obeikandl.com

أن نرد هذه الغرائز كلها إلى ثلاث من الغرائز الكبرى أو أمهات الغرائز. وهى غرائز الذات، والجنس، والمجتمع. ومن كل منها تتفرع غرائز جزئية يمكن اعتبارها وجوها أو نزعات مرتبطة بالغريزة الأم. وسنلاحظ بعد ذلك أن هناك انفعالات أو مشاعر، ليست غرائز فى حد ذاتها، ولكنها مرتبطة بالغرائز. فالخوف مثلا كثيرا ما يوصف بأنها غريزة، والحقيقة أن الخوف ليس غريزة بل هو انفعال غريزى.

وسنتناول هذه الغرائز الثلاث الكبرى، ونقسمها أولا إلى وجوه نشاطها المختلفة. وفى الخطوة التالية نقسم وجوه النشاط تلك إلى الميول المختلفة المرتبطة بها، ونشير إلى الانفعالات المميزة المرتبطة بهذه الميول ذات الأصل الغريزى. فمثلا الغريزة الأم التى نسميها غريزة الذات، أو اعتبار الذات يتفرع منها ما يسمى حفظ الذات. ومن حفظ الذات، يتولد الميل إلى الهرب. ويرتبط بهذا الميل إلى الهرب، انفعال مميز هو الخوف.

وعلى هذا الأساس، ستكون لدينا ثلاثة جداول إيضاحية إجمالية لأمهات الغرائز الثلاث، وما يندرج تحتها ويتفرع منها. ولعل هذه الأشكال التوضيحية أقرب إلى الأذهان من الأوصاف اللفظية.

obeikandl.com

الجنس

الميول الوالدية	التباهي	التناسل
أمومة + أبوة	الشهامة	الاستطلاع	الجماعة «الرغبة»

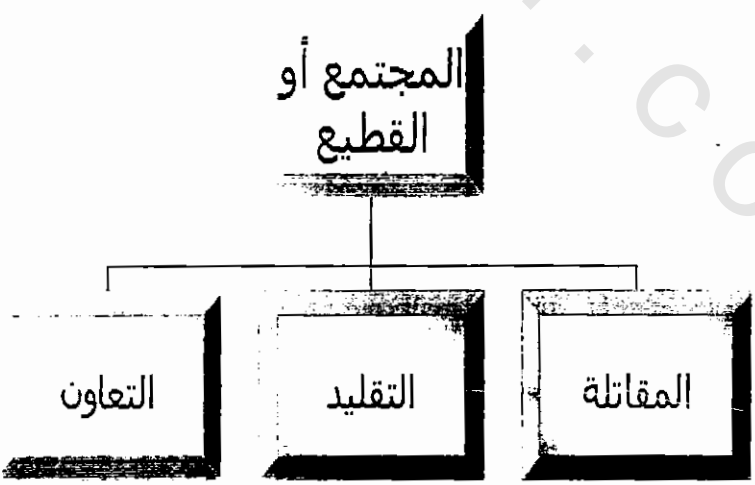

obeikandl.com

ومن هذه الجداول الثلاثة، نرى أن هناك أنواعا من النشاط الغريزى لها اسم واحد، لكن مصادرها مختلفة وعملياتها العقلية مختلفة. فإذا حطم غلام ساعة، بأن فك أجزاءها ولم يعرف كيف يعيد تركيبها. أو نظر من ثقب مفتاح الحمام أثناء استحمام الخادمة، فسنقول فى الحالتين أنه محب للاستطلاع. ولكن مصدر هذين الفعلين الغريزيين مختلف. فهو فى حالة فك أجزاء الساعة مدفوع بطلب المعرفة كى يبنى بها نفسه أو يثبت ذاته. فهذا النشاط مصدره غريزة اعتبار الذات. أما عندما يختلس النظر من ثقب مفتاح الحمام إلى جسد الخادمة العارى، فاستطلاعه ذو أصل جنسى لا محالة. وكذلك استطلاع الطفل الجائع لما فى داخل آنية الطعام أو دولاب المطبخ له أصل ثالث.

وإذا اعتبرنا حالة مكتشف هاجمته الذئاب فقاتلها، فعمله هذا صادر عن حفظ الذات الذى هو وجه من وجوه غريزة اعتبار الذات. أما فى الجمعيات العمومية، فقد نجد شخصا يصوت ضد إجراء معين، لا عن اقتناع، بل لأنه يرى بقية الأعضاء ضد هذا الإجراء، وهو أجبن من أن ينفرد دونهم فى الرأى. فمقاتلته فى هذه الحالة صادرة لا عن حفظ الذات، بل عن غريزة القطيع وما يتفرع منها من الضغط العام. وأما قتال الوالدين دفاعا عن ذريتهما، فنوع ثالث من المقاتلة وإن كان يحمل نفس الاسم الذى أطلق على سلوك الرحالة وسلوك عضو الجمعية العمومية المذكور آنفا.

وأرجو ألا يغيب عن الأذهان أنى استخدم كلمات الذات والجنس والمجتمع بأوسع معانيها. وسنرى على أساس هذه الجداول، كيف نفسر الدوافع والانفعالات أو العواطف المميزة المرتبطة بأمهات الغرائز وبالميول ذات الأصول الغريزية.

وهناك قصة مشهورة عن رجل متقدم فى السن كان يسير فى حارة متوكئا على

عصاه، عندما فطن إلى ثور هائج قادم من خلفه. فإذا به يتسلق شجرة بسرعة البرق. وبعد زوال الخطر اكتشف أنه عاجز عن النزول، وتعجب كيف تسنى له الصعود بهذه الخفة والرشاقة.

والتفسير بسيط إذا حللنا سلوكه على ضوء الجدول الأول. فإن «الذات» قد استثيرت من ناحية « حفظ الذات ». وتولد منها على الفور الميل إلى الفرار. وكان الانفعال المميز المسيطر فى هذه الحالة هو الخوف. فجندت قوى الجسم كلها مؤتمرة بهذه القوة اللاشعورية الجبارة، فكانت الحركة البهلوانية التى تشبه المعجزة.

وقد يكون من مصادر التسلية الطريفة للقارئ أن يحلل على هذا المنوال جميع الحوادث التى يظهر فيها السلوك الغريزى بوضوح.

ومن النادر أن تكشف الشخصية عن نشاط فى مثل عنفوان نشاط الانفعال الغريزى، عندما يسعى لتحقيق هدفه. فما من إنسان مهما بلغ به التعب لا ينسى تعبه ويندفع خفيفا من فراشه عندما يسمع الصيحة المفزعة « النار!. الحريق!. ». وما من امرأة يمكن أن يحول التعب بينها وبين السهر طول الليل لتمريض ولدها. والاستطلاع يستغرق اهتمام الباحث أو المكتشف، فينسى مرور الساعات، ويجور على حق الطعام وحق النوم وهو لا يدرى. والوحشة قد تدفعنا إلى التماس الصحبة ولو كانت صحبة سوء.

إن جميع هذه الطاقات كثيرا ما تبدو أقوى من طاقات الإرادة الواعية، وكثيرا ما تكون لها الغلبة عليها.